الدراسات

الاستشراق ودوره في توثيق وتحقيق التراث العربي المخطوط

عباس صالح طاشكندي
أستاذ مشارك في قسم المكتبات والمعلومات جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

لعل من البديهي أن نستهل دراستنا لدور الحركة الاستشراقية في توثيق وتحقيق التراث العربي المخطوط باستعراض بعض الآراء التي تناولت بالدراسة والتحليل أهداف واتجاهات الحركة من دراستها لتراث الشرق عامة والتراث العربي الاسلامي بصفة خاصة، فنتعرض بايجاز لعدد محدود من الدراسات، ننتقيها من بين خضم من المؤلفات التي تعرضت لأهداف الدراسات الاستشراقية.

فيذهب البعض نحو تأكيد خلفية الحركة في دعمها للصراع الحضاري بين الغرب والشرق وموقفها المعادي من الشرق عامة ومن الاسلام والعرب بصفة خاصة، بينما يقف البعض الآخر منها موقف المؤيد عن طريق تأكيد أدوارها الايجابية الرائدة تجاه ابراز ودراسة تراث الشرق بما حوى من المضامين الفكرية والثقافية. وفريق آخر يقف بين الاتجاهين، لا يغفل أخطار الاستشراق على الفكر الاسلامي العربي، ولا يقلل من مضامينه الايديولوجية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، لكنه في نفس الوقت لا ينكر دوره في العناية بتراث الشرق جمعاً وتصنيفاً وتوثيقاً وترجمة وتحقيقاً.

يقف ادوارد سعيد في كتابه[١] الذي استحوذ قدراً هائلاً من التعليقات، من الحركة الاستشراقية، وخاصة من خلال تحليله لنماذجها البريطانية والفرنسية موقفاً صارماً يربطها بالنزعة الاستعمارية من ناحية، والعنصرية التي يمارسها الغرب تجاه الشرق من ناحية أخرى. فالاستشراق كما يراه، لا يعدو كونه ممارسة غربية للتفوق الموقعي على الشرق « يعتمد الاستشراق، بطريقة ثابتة، من أجل استراتيجيته على هذا التفوق الموقعي المرن الذي يضع الغرب في سلسلة كاملة من العلاقات المحتملة مع الشرق دون أن يفقده للحظة واحدة كونه نسبيا صاحب اليد العليا . ولماذا كان ينبغي أن يكون الأمر على غير هذه الشاكلة، خصوصا خلال مرحلة الهيمنة الأوربية الخارقة منذ أواخر عصر النهضة حتى الوقت الحاضر؟»[٢]

ومن هنا فان نتاج الحركة الاستشراقية مهما كان بريقه العلمي سيصب في خاتمة الأمر لتحقيق غايات تهدف الى تأكيد التبعية بأبعادها العلمية والسياسية والسوسيولوجية والعسكرية والاقتصادية. وعلى الرغم من اتفاق العديدين ممن تناولوا دراسة أهداف الحركة الاستشراقية على تأكيد الأطماع الاستعمارية والنيل من نقاء تراث الشرق والمساس بشخصياته الفذة، إلا أن دراسة ادوارد سعيد تميل إلى التنظير وتخضع جهود الحركة لمقاييس نقدية إستمدها من تحليل الانتماء الفكري للمستشرقين أنفسهم، فيرى بأن « الاستشراق قد وصف الشرق في إطار خصائص غربية حديثة ترفع الشرق من عوالم الابهام الصامت، حيث كان قد انطرح مهملا الى وضوح العلم الأوربي الحديث.»[٣]

وفي الجانب الآخر، يقف العقيقي[٤] من الاستشراق موقف المؤيد، متحمساً لما قدمته الحركة من جهود، رصدها في كتابه الموسوعي بعنوان «المستشرقون» وتطغى على آرائه ايجابيات الحركة،

ويعتبر نفسه مستشرقا ضمن فئة الاستشراق المارونية، فيتناول اسهامات الاستشراق في مجالات العناية باللغات الشرقية وآدابها ونشر مصادرها المخطوطة والعناية بآثار الشرق بصفة عامة.

«ولقد بلغ المستشرقون من تعليم لغاتنا وحفظ تراثنا والكشف عن آثارنا، واحيائها بالنشر والترجمة والتصنيف، ذلك المبلغ، وبمنهج ومميزات ووسائل لم تتوفر لنا من قبل...»(٥)

كما يؤكد بأن التراث العربي الاسلامي هو تراث انساني.

«ولأولئك الأجانب الغرباء نصيب فيه. وتسقط (في حالة القول بعدم التخلي عن تراثنا للأجانب) صفته الانسانية في تأثره بالثقافة العالمية وأثره فيها من اليونان والفرس والرومان إلى أوربا وأفريقيا وآسيا حتى الشرق الأقصى.

ولولا جهود المستشرقين لما أحطنا به أو اهتدينا إلى كل عظمة أسلافنا، وحققنا تواريخ أولى دولنا، وما دامت ثقافتنا عالمية ومن سماء الشرق انبثقت الأديان الثلاثة المنزلة، حق لعلماء العالم تمحيصها لمعرفة مصادر حضارتهم وتقصيهم صلات بلدانهم بالشرق العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية لتحديد تاريخهم منه في ضوئها..»(٦).

وفي معرض رده على الهجوم الذي يشنه علماء العرب والمسلمين للمستشرقين عامة وخاصة فيما يتعلق بأهدافهم التبشيرية والنيل من الاسلام والمسلمين يؤكد بأنه :

«لو استهدف الرهبان الجدل والتبشير فحسب لاكتفوا بتعليم العربية واهملوا ما عداها من اللغات التي قل أو انقرض المتكلمون بها كاليونانية القديمة والعبرية، والسريانية، والكلدانية، وما كلفوا أنفسهم انشاء بواكير مكاتب الترجمة والمعاهد والمكتبات، والمطابع والمجلات لحفظ تراثها ونشر ذخائره والتصنيف فيه وترجمته الى لغات العالم بأسره»(٧)

وإذا كان تحليلنا الموجز لأعمال كل من ادوارد سعيد ونجيب العقيقي كنماذج تكشف عن اتجاهين مختلفين لتحليل أهداف الحركة الاستشراقية، فان العديد من الدراسات التي أنجزها بعض المفكرين المسلمين تجاه مفهوم الاستشراق وأهدافه قد استهدفت النظر برؤية وموضوعية وعمق وأخضعت الفكر الاستشراقي للتحليل والبحث، فالدراسات التي انجزها طيباوي بعنوان «المستشرقون الناطقون بالانجليزية»(٨) ومحمد البهي بعنوان «الفكر الاسلامي الحديث»(٩) والشيخ مصطفى عبد الرازق بعنوان «تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية»(١٠) والسامرائي بعنوان «الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية» (١١)، تعد دراسات معمقة حاولت أن تكشف موقف الاستشراق من الاسلام وتخضع إسهاماته لموازين التحليل والنقد والدراسة، كما حاولت في الوقت نفسه ألا تغفل الكشف عن الإيجابيات التي صاحبت الحركة في مراحلها المختلفة، وقد قام محمود حمدي زقزوق مؤخرا باصدار دراسة تعرض للاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري(١٢) تناول فيها دراسة نشوء الاستشراق وموقف المستشرقين من الإسلام، كما استعرض أهدافهم الدينية والعلمية والتجارية والسياسية،وما أسهموا به من أعمال. واختتم دراسته بتوضيح ما يجب اتخاذه من جانب المسلمين من مواقف تجاه الاستشراق، داعيا لدراسته واستيعابه ونقده، واقترح اصدار موسوعة علمية تقوم على أساس صحيح، مهمتها الرد على المستشرقين، وانشاء مؤسسة إسلامية علمية عالمية، وتكوين جهاز عالمي للدعوة الاسلامية، ونشر دائرة معارف اسلامية جديدة، واخراج ترجمة اسلامية صحيحة لمعاني القرآن الكريم، وتنقية التراث الاسلامي من الشوائب التي علقت به. كما دعا إلى تأكيد وتكثيف الحضور الاسلامي في الغرب عن طريق المشاركة في البحوث العلمية والتدريس.(١٣)

وتولى أحمد سمايلوفتش دراسة فلسفة الاستشراق(١٤) فأوضح دوافعها النفسية والتاريخية والاقتصادية والايديولوجية والدينية والعلمية، وكشف عن اتجاهاتها العقدية والعلمية وعلاقتها بكل من الاستعمار والتبشير والصهيونية،وافرد فصولاً لتحليل نماذج من أعمال بروكلمان وناللينو ونيكولون وبلاشير وجيب وكراتشكوفسكي وفون غرنباوم وجونثالث وآدامز وغيرهم، كما ركز دراسته على أثر الاستشراق في الأدب العربي المعاصر، فتناول اسهامات المستشرقين في مجالات العناية بتراث الشرق نشرا وتحقيقا ودراسة.

ونخلص من هذا إلى أن موضوع الاستشراق وأهدافه ظل مثار جدل كبير وخاصة من علماء المشرق، فما من مؤتمر أو ندوة علمية يرتبط موضوعها بالثقافة الشرقية إلا وكان للاستشراق نصيب فيه. ونذكر على سبيل المثال لا الحصر عرض فلايشهامر في الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامي في الجزائر(١٥) لتاريخ وثقافة الاسلام في مؤلفات كارل بروكلمان ويوهان فوك، حتى انبرى له أحمد حماني(١٦) معقبا عليه ومفنداً ما جاء في آراء كارل بروكلمان عن الاسلام والمسلمين من فساد وجهل وتحريف وزيف وتخريف،

مقدما نماذج من آرائه في مسائل العقيدة الاسلامية وشخصية الرسول عليه افضل الصلاة والسلام، وعرض ايضاً لآراء غولدزيهر صاحب نظرية أن الفقه الاسلامي تأثر كثيرا بالقانون الروماني، وأنه كان مصدرا من مصادره استمد منه بعض أحكامه، وكشف عن أخطار هذا المستشرق الذي اندس تحت ستار ما عرف عنه من لين واعتدال ومداهنة تجاه بعض المسائل الاسلامية(١٧) . وقدم نبيه عاقل في نفس الملتقى(١٨)دراسة موجزة استعرض فيها نماذج من آراء المستشرقين المعادية للاسلام والعرب، اردفها باستعراض الأسباب التاريخية التي أدت إلى ظاهرة العداء، مؤكدا على الدوافع الدينية والاستعمارية.

«وينبغي أن ننبه إلى أن الكثير ممن نسميهم بالمستشرقين لم يكونوا علماء أو أساتذة جامعة أو رجال بعثات أثرية بل كان بينهم العديد من الجواسيس والموظفين في وزارات الخارجية ووزارات المستعمرات ودوائر الاستخبارات وغير ذلك.»(١٩)

وهو الأمر الذي أكده المستشرق أليش هارمان مدير معهد جوته الألماني في مقالة نشرها مؤخرا في مجلة الباحث(٢٠) حين استعرض ـــ بشكل مختصر ـــ منجزات ومواقف الاستشراق الألماني في الشرق الأوسط.

«كانت الدراسات الألمانية حول العالم الاسلامي قبل عام ١٩١٩ أقل براءة وصفاء نية، فقد كان كارل هاينريش بيكر هو من كبار مستشرقينا، منغمسا في النشاطات السياسية، حتى أنه أصبح في عام ١٩١٤ شديد الحماس لمخطط استخدام الاسلام في أفريقيا والهند كدرع سياسة في وجه البريطانيين وقد أعرب فيما بعد عن أسفه لتورطه في هذا الموضوع.

وعندما غدا وزيرا للثقافة في بروسيا أيام جمهورية فايمار، سعى جهده لرأب الصدع بين الأعداء السابقين..»(٢١)

ونخلص من هذا كله إلى أن الاستشراق مهما كانت نتائجه ايجابية فيما يتعلق ببعض الجوانب، فإن الدوافع الاساسية دينية أو اقتصادية أو استعمارية أو فكرية أو جميعها معا ستظل من الثوابت المرتبطة بمفهوم الصراع الحضاري والغزو بشتى أشكاله وألوانه. وهو منهج إتُبِّعَ لتحقيق أغراضه ودوافعه أشكالا شتى من الوسائل والطرق، وحقق بالفعل نتائج كبيرة، أهمها أن الغرب قد استطاع خلال هذه الحركة اكتساح أسوار الشرق مركزا على دراسة موروثاته الحضارية، وهو المدخل لفهم الحضارات الشرقية بصفة عامة، محاولا أن يدس فيها ما شاء من التحريف والفساد بهدف التشكيك والوصول إلى الدوافع الحقيقية له.

ولما كان هدف هذه الدراسة تحليل الاستشراق ودوره في توثيق وتحقيق التراث العربي المخطوط، فاننا نكتفي بهذا القدر الموجز من التحليل الذي تناول استعراض دوافع وأهداف الحركة بصفة عامة، وننتقل لدراسة الدور الذي اكسبها معظم رصيدها من الاشادة والايجابية، مسلطين الضوء على جهود المستشرقين في ضبط التراث المخطوط وتوثيقه، ومنهجهم في نشره وتحقيقه.

أ ـــ التوثيق

ففي مجال ضبط المخطوطات العربية وفهرستها وتوثيقها، تولى المستشرقون مسؤولية اصدار مئات من الفهارس المتميزة كأدوات ببليوجرافية تحصر الانتاج المخطوط في عدد من المكتبات العالمية الكبرى، نوجز الاشارة إليها فيما يلي :

أولا : في المانيا

- اصدر المستشرق فليشر **H.O. Fleisher** فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة درسدن الأهلية عام ١٨٣١م في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق فليشر **H.O. Fleisher** فهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة مجلس الشيوخ في ليبزيج عام ١٨٣٨م في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق جيلد ميستر **J. Gildmeister** فهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة جامعة بون عام ١٨٧٦م في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق أومر **J. AUmer** فهرس المخطوطات العربية في المكتبة الأهلية بميونخ عام ١٨٨٦م في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق برتش **F.A. Pertsch** فهرس مخطوطات مكتبة جوته عام ١٨٩٢م في خمسة أجزاء.
- أصدر المستشرق اهلوارد **W. Ahlwardt** فهرس مخطوطات المكتبة الملكية ببرلين عام ١٨٩٩ م في عشرة أجزاء.
- أصدر المستشرق بروكلمان **C. Brockelmann** فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة همبورج الأهلية عام

١٩٠٨م في مجلد واحد.

ثانيا : في المملكة المتحدة

- أصدر المستشرقان كوريتون **W. Cureton &** وريو **C. Rieu** الفهرس الخاص بالمخطوطات العربية في المتحف البريطاني عام ١٨٧١ في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق ريو **C. Rieu** ملحقا لفهرس المخطوطات العربية في المتحف البريطاني عام ١٨٩٤ في مجلد واحد.
- أصدر المستشرقون إليس **A. Ellis** وادوارد **Edward** ومرجليوث **Margoliovth** وفلتون **Fulton** ملحقا لفهرس المخطوطات العربية في المتحف البريطاني عام ١٩١٢م في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق لوث **O. Loth** فهرس المخطوطات العربية بالمكتب الهندي في لندن عام ١٨٧٧ في مجلد واحد.
- أصدر المستشرقان دينيسون روز **E. Denison Ross** وبرون **Browne** فهرس المخطوطات العربية والفارسية بمكتبة ديوان وزارة الهند في لندن عام ١٩٠٢ في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق روبين ليفي **Ruben Levy** فهرس المخطوطات العربية بمكتبة المكتب الهندي في لندن عام ٧٩٣٧م في اربع مجلدات.
- أصدر المستشرق مورلي **W.H. Morley** فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية والهندية الموجودة في مكتبة الجمعية الملكية الآسيوية عام ١٨٣٨م في مجلد واحد.
- أصدر المستشرق لي استرانج **G. Le Strange** ملحقا لفهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة الجمعية الملكية الآسيوية عام ١٨٨١ م في مجلد واحد.
- أصدر المستشرقون مورلي **Morley** ولي استرانج **Le Strange** وبرون **Browne** وجب **Gibb** ملحقا لفهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة الجمعية الملكية الآسيوية عام ١٨٨١ في مجلد واحد..
- أصدر المستشرق الكساندر نيكول **Alexander Nicol** فهرس المخطوطات الشرقية بالمكتبة البودلية عام ١٨٧٧م.
- أصدر المستشرق بيوزي **E. Pusey** ملحقا لفهرس المخطوطات الشرقية بالمكتبة البودلية عام ١٨٣٨م.
- اصدر المستشرق بالمر **E. Palmer** فهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة كلية ترينيتي **Trinity College** عام ١٨٧٠م.
- أصدر المستشرق برون **Ed. G. Browne** فهرس المخطوطات الاسلامية بمكتبة جامعة كمبردج عام ١٩٠٠م.
- أصدر المستشرقان جب **E. Gibb**ووير **T.H. Weir** فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية بمكتبة جامعة جلاسكو عام ١٩٠٦م.
- أصدر المستشرق ابوت **T.K. Abbot** فهرس المخطوطات المحفوظة بمكتبة كلية ترينيتي **Trinity College** في دوبلين عام ١٩٠٠م.
- أصدر المستشرق منجانا **A. Mingana** فهرس المخطوطات العربية بمكتبة جون ريلاندز **John Rylands** عام ١٩٣٤م.

ثالثا : في النمسا

- أصدر المستشرق فلوجل **G. Flugel** فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية بمكتبة فيينا العامة عام ١٨٦٧م في ثلاثة مجلدات.
- أصدر المستشرق كرافت **Kraft** فهرس المخطوطات العربية والتركية الموجودة بمكتبة الجمعية الآسيوية في فيينا عام ١٨٤٢ في مجلد واحد.

رابعا : في فرنسا

- أصدر المستشرق دي سلان **Baron De Slane** فهرس المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية في باريس عام ١٨٩٥ في ثلاثة أجزاء.
- أصدر المستشرق بلوشيه **E. Blochet** فهرس الحاقي للمخطوطات العربية في المكتبة الوطنية في باريس عام ١٩٢٥م.

— أصدر المستشرق بلوشيه **E. Blochet** فهرس المخطوطات الشرقية بمجموعة شيفر **Scheffer** عام ١٩٠٠م.

— أصدر المستشرق جريفو **R. Griveau** فهرس الحاقي للمخطوطات العربية في المكتبة الوطنية في باريس عام ١٩٠٩م.

— أصدر المستشرق بلوشيه فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية التي منحها دكورديمانش **Decourdemanche** للمكتبة الوطنية في باريس عام ١٩٠٩م.

خامسا : في ايطاليا

— أصدر المستشرق دي هامر **G. De Hammer** فهرس المخطوطات الشرقية كملحق للفهارس التي اصدرها يوسف السمعاني لمخطوطات مكتبة الفاتيكان بروما، عام ١٨٢٧م.

— أصدر المستشرق الكاردينال ماي **May** فهرس الحاقي للمخطوطات الشرقية بمكتبة الفاتيكان عام ١٨٣١.

— أصدر المستشرق ديلا فيدا **Della Vida** فهرس المخطوطات الاسلامية في مكتبة الفاتيكان عام ١٩٣٥م.

— أصدر المستشرق جراف **G. Graf** فهرس المخطوطات العربية المسيحية عام ١٩٣٤م.

— أصدر المستشرق فون روزن **Von Rosen** فهرس المخطوطات الشرقية بمجموعة ماسيجلي **Massigli** عام ١٨٨٥م.

— أصدر المستشرق بسيونيوس **A. Biscionius** فهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة فلورنسا عام ١٧٥٢م.

— أصدر المستشرق بوروميه **F. Boromee** فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية بمكتبة الامبروزيانا عام ١٨٤٨م.

— أصدر المستشرق جريفيني **E. Griffini** فهرس المخطوطات اليمنية في مكتبة الامبروزيانا عام ١٩١٤. في مجلدين.

سادسا : في اسبانيا

— أصدر المستشرق ديرنبورج **H. Derenbourg** فهرس المخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال عام ١٩٠٣ في مجلدين.

— أصدر المستشرق ليفي بروفنسال **Provencal** فهرس الحاقي للمخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال عام ١٩٢٨ في أربعة مجلدات.

— أصدر المستشرق روبلس **F. Robles** فهرس المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية الاسبانية بمدريد عام ١٨٨٩م.

— أصدر المستشرقان ريبرا **J. Ribera** واسن **M. Asin** فهرس المخطوطات العربية في مكتبة جونتا الأسبانية عام ١٩١٢م.

سابعا : في هولندا

— أصدر المستشرقون دوزي **Dozy** وكيونين **Kuenen** ودي جونج **De Jong** ودي خويه **De Goeje** وهوتسما **Houtsma** فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة أكاديمية لوجدونو باتافيا في ليدن عام ١٨٧٧ في ستة مجلدات.

— أصدر المستشرقون دي خويه وهوتسما وجون بول **Juynboll** فهرس المخطوطات العربية في أكاديمية ليدن عام ١٩٠٧ في ثلاثة مجلدات.

— أصدر المستشرق ويليريس **Weuleresse** ودي جونج **De Jong** فهرس المخطوطات الشرقية في الاكاديمية الملكية بامستردام عام ١٨٦٢م.

— أصدر المستشرق دي جونج **De Jong** فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة كلية اوترخت عام ١٨٦٢.

ثامنا : في الدول الإسكندنافية :

— أصدر المستشرق تورنبغ **C. Tornberg** فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية في مكتبة جامعة ابسالا عام ١٨٤٩.

— أصدر المستشرق زترستين **Zettersteen** فهرس الحاقي للمخطوطات الشرقية بمكتبة جامعة ابسالا عام ١٩٣٠.

— أصدر المستشرق مهرن **Mehren** فهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة كوبنهاجن عام ١٨٥١م.

تاسعا : في الاتحاد السوفيتي

— أصدر المستشرق دورن **Dorn** فهرس المخطوطات الشرقية لمكتبة ليننغراد العامة عام ١٨٥٢م.

— أصدر المستشرق البارون فان روزن Von Rosen فهرس المخطوطات العربية بمكتبة المتحف الآسيوي بلينغراد عام ١٨٨١م.

— أصدر المستشرق البارون فان روزن Von Rosen فهرس المخطوطات العربية التابعة لمدرسة اللغات الشرقية بوزارة الخارجية عام ١٨٧٧.

— أصدر المستشرق جوتوالد Gottwald فهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة جامعة قازان عام ١٨٥٥ في مجلدين.

— أصدر المستشرق دورن Dorn فهرس المخطوطات الشرقية في المكتبة الأمبراطورية العامة في بطرسبرج عام ١٨٥٢م.

— أصدرت المستشرقة كاشتاليفا Kashtaleva فهرس المخطوطات العربية في مكتبة طشقند عام ١٩٣٧.

— أصدر المستشرق كراتشكوفسكي Kratchovski فهرس المخطوطات العربية من القوقاز في القسم الآسيوي من متحف مجمع العلوم عام ١٩٣٦.

عاشرا : في الولايات المتحدة الأمريكية

— أصدر المستشرق إنوليتمان Littmann قائمـة للمخطوطات العربية في مكتبة جامعة برنستون عام ١٩٠٤م.

— أصدر المستشرق ماكدونالد McDonald فهرس المخطوطات العربية والتركية في مكتبة نيوبرى بشيكاغو عام ١٩١٢م.

— أصدر الدكتور فيليب حتي Hitti فهرس المخطوطات العربية بمكتبة جامعة برنستون عام ١٩٣٨م.

— أصدر المستشرق نيموى Nemoy فهرس المخطوطات العربية بمكتبة جامعة ييل عام ١٩٥٦م.

وبالوقوف عند هذه النماذج الموجزة التي استعرضنا فيها رصدا، جهود الحركة الاستشراقية في توثيق التراث العربي المخطوط، ممثلة فيما أصدرته من خلال رجالها من فهارس وأدلة تكشف عن المخطوطات العربية في بعض المكتبات الرئيسية في العالم، يجدر أن نتناول بالتحليل أهم ما يميز هذه الجهود من ملامح ببليوجرافية رائدة في مجال توثيق المخطوطات العربية.

أولا : تتميز حركة توثيق التراث العربي المخطوط على أيدي المستشرقين بالعناية التي أبدوها تجاه عناصر الوصف البيليوجرافي للأعمال المخطوطة. فالفاحص لأعمال رصد حركة التأليف العربية بدءاً بكتب الطبقات العربية وكتاب الفهرست لابن النديم، وما يلي ذلك من تصنيف مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاشكبري زاده، وكشف الظنون لحاجي خليفة، وهدية العارفين للبغدادي، وغير ذلك من كتب تصنيف العلوم العربية، يلاحظ بوضوح **اقتصارها** على عدد محدود من العناصر الوصفية الببليوجرافية بينما نجد أن أقدم الفهارس التي أصدرها المستشرقون قد أولت عناصر الوصف البيليوجرافي عناية خاصة، إذ أن الفهرس الذي أصدره المستشرق بسيونيوس Biscionius للمخطوطات الشرقية بمكتبة فلورنسا عام ١٧٥٢م لم يقتصر على ذكر المؤلف والعنوان، بل اشتمل على عناصر تتناول معظم المكونات المادية للمخطوط كالورق والخط والحجم والتجليد والناسخ والتاريخ المدون وغير ذلك، وهذه ظاهرة جديدة لم تكن توليها كتب التصانيف العربية عناية تذكر.

وعلى الرغم من أن الفهارس التي اصدرها المستشرقون قد اعتمدت في مناهجها الببليوجرافية على طريقتين، أحداهما تعتمد أسلوب التحقيق والإطالة، والأخرى تعتمد الايجاز والاختصار، فانها تتفق جميعا في الحد الأدنى لعناصر الوصف البيليوجرافي لكل عمل مخطوط.

وقد ساعد هذا الاتجاه على توسيع نطاق دراسة المخطوطات العربية، وأمكن من خلال توسيع عناصر الوصف دراسة مجالات أوسع في الكتاب العربي المخطوط كالتجليد والخطوط العربية وفنون الزخرفة والتذهيب ونماذج أساطين الخط ومواد الكتابة وفنون اخراج الكتاب العربي الأخرى.

ثانيا : بذل المستشرقون جهدا كبيرا في تحقيق عناصر الوصف

البيليوجرافي لبعض الأعمال المخطوطة وخاصة في بيانات التأليف والعناوين والتواريخ، وأخضعوا الأعمال الموصوفة للتحقيق والنقد بغية اثبات البيانات الصحيحة، وأمكن لهم اخراج فهارس نموذجية يصعب مجاراتها في يومنا الحاضر، نذكر على سبيل المثال الفهرس الذي اصدره اهلورد **Ahlwardt** لمخطوطات المكتبة الملكية في برلين عام ١٨٩٩ في عشرة مجلدات، والذي تولى فيه تحقيق بيانات التأليف والعنوان والاخراج على نحو مثالي، جعل من هذا العمل مرجعا هاما للتحقيق والمراجعة والمقارنة.

أسهمت حركة الاستشراق في دفع عجلة الضبط البيليوجرافي للمخطوطات العربية، وذلك عن طريق محاولاتها إصدار الفهارس لأهم مجموعات المخطوطات في الدول الأوربية وغيرها، وإيفاد المختصين لفهرسة المجموعات الشرقية في مواطنها الأصلية، وتأهيل الكفايات الوطنية لممارسة أعمال الضبط البيليوجرافي للمخطوطات. وقد تخرج على أيدي بعض المستشرقين جيل من المختصين أمكن لهم الاسهام بجهود بارزة، تاركين بصمات واضحة في ميادين التوثيق والعمل البيليوجرافي للمخطوطات.

ولم يقتصر عمل المستشرقين على ضبط المخطوطات العربية القائمة في مكتبات بذاتها فحسب، بل اسهموا أيضا في دراسة مصادر التراث العربي مستهدفين تصنيفه وتوثيقه وحصره بشكل شامل. ويأتي في هذا الاطار جهود المستشرقين هامر بورجستال **Hammer-Purgstall**(٢٢) الذي سعى إلى جمع مصادر التراث العربي حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري، والمستشرق اربثنوت **Arbuthnot**(٢٣) في دراسته للمؤلفين العرب، والمستشرق كريمر **Kremer**(٢٤) في دراسته للمؤلفين للتاريخ الثقافي الشرقي، يتوجها جهود المستشرق كارل بروكلمان(٢٥) في دراسته لتاريخ الأدب العربي، وعلى الرغم من التحفظات الشديدة التي نبديها على آراء بروكلمان تجاه الاسلام وعناصر التراث العربي ورجالاته، إلا أن كتابه يعتبر دراسة رائدة في ميدان حصر مصادر التراث العربي. كشف في الجزء الأول منه عن مصادر اللغة العربية والشعر الجاهلي، كما خصص الجزء الثاني لعصر النهضة العربية بدءاً من سنة ٧٥٠م حتى سنة ١٠٠٠م ، وأفرد الملحق الأخير لمصادر التاريخ والسير والكتب التي تم تأليفها في التراث العربي. تبع ذلك أعمال كل من هارت **Huart**(٢٦) وبيزي **Pizzi**(٢٧) ودي خوية **De Goeje**(٢٨) ونيكلسون **Nicholson**(٢٩) وكريمسكي **Krymzki**(٣٠) ومتز **Metz**(٣١) وجب **Gibb**(٣٢) ورشر **Rescher**(٣٣) في تغطية مصادر التراث العربي للحقب المختلفة.

ونخلص من هذا كله إلى تقرير أن تلك الجهود الايجابية التي بذلها المستشرقون في ميدان توثيق التراث العربي المخطوط على الرغم من أنها قد أدت بالفعل إلى توثيق وضبط كميات هائلة من مخطوطاتنا العربية في أرجاء مختلفة من الأرض، إلا أنها — في نفس الوقت — قد أسهمت بدور هام ورئيسي في تحقيق أهداف الحركة الاستشراقية بصفة خاصة، حيث أمكن من خلال تلك الأدوات البيليوجرافية التعرف بدقة على طبيعة حجم الموروثات العربية المكتوبة، وبالتالي تحليل مضامينها الفكرية والمادية عن طريق النقد والدراسة، وانتقاء الأعمال التي تستفيد منها الحركة في تحقيق أهدافها الدينية أو العسكرية أو السياسية أو الايديولوجية للتحقيق والنشر.

ب ــ التحقيق

ويبقى أن نعالج العنصر الثاني من هذه الدراسة ، وهو ما يتعلق بدور الاستشراق ونهجه في تحقيق ونشر التراث العربي المخطوط. وفي هذا الصدد يجدر أن نشير ــ بايجاز ــ لمناهج التحقيق عند المستشرقين وخاصة ما يتعلق منها بمناهج تحقيق المخطوطات العربية.

لقد انشغلت حركة الاستشراق منذ بداية عهد فريدريك الثاني ملك صقلية في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وعهد الفونس ملك قشتالة في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي بقضية نقل العلوم العربية وترجمة كتبها، وتقرر في مؤتمر فيينا عام ١٣١١ ميلادية، والذي ترأسه البابا كليمان الخامس، تأسيس مدارس خاصة بتعليم العربية في كل من باريس وبولون واكسفورد وسلمنكا(٣٤) مهمتها اعداد مبشرين يقومون بالتنصير، وتهيئة جيل من المختصين يعملون على ترجمة الكتب العربية الى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية.

ومع قيام النهضة الأوربية واتساع المعاهد المتخصصة وظهور الطباعة بعد منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، أخذت الحركة في النمو السريع واتسع اهتمامها بالتراث العربي، فترجمت أول أجرومية عربية في غرناطة عام ١٥٠٥م، وتلاها صدور أول كتاب مطبوع بالحروف العربية في أوربا وهو كتاب صلاة الصاوي والذي طبع عام ١٥١٤م بمدينة البندقية. وأنشأ فرديناند دي ميديتشي عام ١٥٨٦م مطبعة عربية لطبع الكتب الطبية والفلسفية لابن سيناء وغير ذلك من الكتب العربية، الأمر الذي دفع تدريجيا إلى ظهور بواكير النشر العربي في مجالات كتب النحو واللغة العربية والقواميس وكتب التاريخ والأدب والطبقات. فظهر كتاب المجمع المبارك لابن العميد، وكتاب تاريخ الدول لابن العبري، وكتاب نظم الجوهر لسعيد بن البطريق، وتاريخ أبي الفداء، ومقامات الحريري وغيرها من الأعمال العربية الأساسية[٣٥].

على أن مناهج التحقيق التي كانت تسود أوربا في تلك الفترة، أي بعد القرن الخامس عشر الميلادي، هي نتاج اجتهادات الجماعات التي اهتمت باحياء التراث اليوناني اللاتيني القديم، وهي التي اعتمدت في بادىء الأمر على منهج لا يقوم على مقارنة النصوص وتحقيقها من نسخ متعددة بل يعتمد على اختيار نص واحد تعاد صياغته ونشره، وتطور منهجهم فيما بعد بحيث عملوا على تكوين نص واحد متكامل مبني من مختلف الروايات والنصوص وأسموه بالنص الكامل[٣٦].

واعتمد بعض المستشرقين الأوائل من الرهبان على مثل هذا المنهج في ترجمة بعض الأعمال العربية إلى اللاتينية. ومع منتصف القرن التاسع عشر الميلادي اتسعت الحاجة إلى النشر، واتسع بالتالي نطاق الاجتهادات في مجال مناهج التحقيق، وأخذت طابعا علميا يقوم على جمع النسخ والمقابلة والتصحيح وضبط الأعلام والأماكن والتواريخ وتحقيق النصوص والتعليق عليها وتذييلها بالفهارس اللازمة. وبدىء في وضع أسس وأصول أقرب ما تكون إلى القواعد والتعليمات، اعتمد منها المستشرقون في تحقيقهم ونشرهم للأعمال العربية الأصول التالية :

١ ــ انتقاء المخطوطات العربية المرشحة للنشر.

٢ ــ جمع نسخ المخطوط الواحد.

٣ ــ تحديد الاختلافات بين النسخ.

٤ ــ العناية بالتصحيح والمقابلة بين النسخ بهدف احياء أصحها.

٥ ــ تحقيق ونقد النصوص وفق أصول علمية ومنهجية.

٦ ــ وضع الفهارس المتنوعة للعمل الواحد.

٧ ــ اجادة الطباعة والاخراج والنشر وفق أصول مقننة.

وباستثناء ارهاصات محدودة كتلك التي أصدرها كولومب Collomp لأصول نقد النصوص اللاتينية عام ١٩٣١م[٣٧] فلم تصدر قواعد تفسيرية تختص بأصول نقد النصوص العربية وتحقيقها إلا حين ألقى المستشرق الألماني برجستراسر Bergstrasser مجموعة من المحاضرات لطلاب كلية الآداب بالجامعة المصرية ــ جامعة القاهرة حاليا ــ في العام الجامعي ١٩٣١/١٩٣٢ عن أصول نقد النصوص ونشر الكتب، والتي لم تر النور إلا في وقت متأخر، حيث أعدها الدكتور محمد حمدي البكري للنشر وصدرت عام ١٩٦٩م[٣٨] وهي التي اشتملت على تعليقات وقواعد تعالج النسخ المختلفة للعمل الواحد، وما يعترض المحقق في احياء أصحها من مشاكل وصعوبات، مستخدما نماذج وأمثلة عديدة لمشاكل اختيار النسخ وتكوين عشائرها. كما عالج في القسم الثاني مشاكل تهذيب النصوص ونقدها مركزا على خصائص تحقيق الصحة اللغوية والموضوعية باستعراض نماذج وأمثلة عديدة من أعمال التحقيق. ولعل أبرز ما جاء في معالجته لقضايا نقد النصوص تأكيد صعوبة وضع قواعد ثابتة على اعتبار أن كل عمل مخطوط يتميز بظروف خاصة به، وبالتالي يصعب تعميم القواعد على نحو عام تخضع له جميع الأعمال المخطوطة.

ومن هنا يمكن اعتبار القسم الثاني من تلك المحاضرات بمثابة توجهات تحيط المحقق بالأصول العامة لنقد النصوص باستخدام قاعدة عريضة من الحالات والاحتمالات مدعومة بالأمثلة القائمة في أعمال التحقيق. أما القسم الأخير من محاضراته فقد خُصِّصَ لتوضيح طريقة العمل في اخراج أعمال التحقيق بدءاً بطرق البحث عن النسخ المختلفة، واعداد المقدمة، واخراج النصوص مشتملة على الهوامش والتعليقات والشروح، وانتهاءً بطرق اعداد الفهارس والكشافات والمصادر.

وفي الأطار نفسه، التزمت جمعية المستشرقين الألمان باستخدام قواعد نشر النصوص الكلاسيكية، اليونانية واللاتينية، وطبقتها على النصوص العربية في نشرها للسلسلة الاسلامية Bibliotheca Islamica باشراف المستشرق ريتر Ritter، وهي نفس القواعد التي

تبنتها فيما بعد جمعية غيوم بوده Association Guillaume Bude في نشرها للنصوص العربية[٣٩].

وفي العام ١٩٤٥ أصدر بلاشير Blachere بالاشتراك مع سوفاجيه Souvaget قواعد نشر النصوص العربية وترجمتها[٤٠] أعيد فيها نشر قواعد جمعية غيوم بوده مع ايلاء عناية أكبر لأصول ترجمة الكتب العربية إلى اللغة الفرنسية، متأثرين في ذلك بأصول نقد النصوص اللاتينية وترجمتها إلى اللغات الأوربية الحديثة.

يتضح من هذا كله أن جهود الحركة الاستشراقية في ميدان مناهج تحقيق التراث العربي المخطوط قد تأثرت إلى حد كبير بأصول نقد النصوص الكلاسيكية اللاتينية القديمة، وهي الأصول التي تم استخدامها ــ بادىء ذي بدء ــ في حسم الصراع الديني الذي ساد أوربا إبان عصر النهضة بين الفرق الكاثوليكية والبروتستانتية، ودفع بالفرق المتصارعة إلى اخضاع نصوص الوثائق الكلاسيكية للشك والنقد دعما لمعتقداتهم وآرائهم المختلفة. كما اخضعت تلك المناهج النصوص العربية بأكملها للأسس الفللوجية ومبادىء التوثيق العلمي دون اعتبار لأصول التدوين ومعاييره وفنونه عند العرب.

وعلى الرغم من أن المستشرقين على دراية تامة بدور العرب في أصول التدوين وفنون المقابلة والتوثيق من النصوص والروايات والأسانيد وابتداع أصول السماعات والقراءات والاجازات والتوقيعات وتوثيق النسخ ومعايرة سلوك الكتابة والتدوين مما يميز المدونات العربية المخطوطة عن غيرها، إلا أن مناهجهم جاءت خلوا من تلك الاعتبارات الهامة في التدوين العربي.

ومن هنا فلا جدال في أن البعض من المستشرقين اعتمادا على أصول نقد النصوص الكلاسيكية القديمة وتحت ستار العقلانية والمنهجية والأسس الفللوجية قد بث من بذور الشك والتحريف على النصوص العربية الموثقة ما أساء إلى أصالتها، وأمكن لهم بالتالي تحقيق أهداف الحركة الاستشراقية في النيل من تراث الشرق والتشكيك فيه.

على أنه وبالرغم من تلك الاعتبارات فقد تركت مناهج المستشرقين في التحقيق أثرا كبيرا على الشرق، إذ جاءت بعض المحاولات العربية في ميدان أصول نقد النصوص ونشرها امتدادا لمناهج المستشرقين، فيقدم صلاح الدين المنجد لقواعده.

«ان هذه القواعد التي نقدمها غايتها توحيد طرق النشر والتعريف به. وقد استقيناها من نهج المستشرقين الألمان، ومن خطة جمعية غيوم بوده..»[٤١]

بينما يصر عبد السلام هارون في دراسته المتميزة بعنوان «تحقيق النصوص ونشرها»[٤٢] على التخلص من أسار سيادة الاستشراق بوضع منهج يستمد أصوله من معايير التدوين والتوثيق عند العرب، ألحق بالمواصفات التقنية لنشر الكتاب العربي المخطوط، واضعا بذلك مناهج التحقيق عند المستشرقين في مكانها المناسب من التقويم.

مراجع البحث

١ ــ ادوارد سعيد، **الاستشراق**، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨١م.

٢ ــ نفس المرجع السابق ص ٤٢

٣ ــ نفس المرجع السابق ص ١١٢

٤ ــ نجيب العقيقي، **المستشرقون**، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٥م.

٥ ــ نفسْ المرجع السابق. جزء ٣، ص ١١٤١

٦ ــ نفس المرجع السابق. جزء ٣، ص ١١٦٣

٧ ــ نفس المرجع السابق. جزء ٣، ص ١١٥٨

٨ ــ محمد البهي. **الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**، دار الفكر بيروت، ١٩٧٣. ص ٥٨١ ــ ٦١٢ (أعيد فيه نشر دراسة طيباوي).

٩ ــ محمد البهي. نفس المرجع السابق

١٠ ــ مصطفى عبد الرازق. **تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية**. المؤلف، القاهرة ١٩٦٦.

١١ ــ قاسم السامرائي. **الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية**. دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، الرياض، ١٤٠٣هـ.

١٢ ــ محمود حمدي زقزوق. **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**. سلسلة كتاب الأمة تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر ١٤٠٤ هـ.
١٣ ــ نفس المرجع السابق. ص ١٣٠ ــ ١٥٣
١٤ ــ احمد سمايلوفتش. **فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر**، (رسالة دكتوراه) دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠.
١٥ ــ وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بدولة الجزائر، **محاضرات وتعقيبات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامي**. المجلد الثاني، الجزائر، ص ٣٥٧ ــ ٣٦٤.
١٦ ــ نفس المرجع السابق. ص ٣٧٢ ــ ٣٨٦.
١٧ ــ نفس المرجع السابق. ص ٣٨٣ ــ ٣٨٦
١٨ ــ نفس المرجع السابق. المجلد الثاني. ص ١٨٥ ــ ٢١٧
١٩ ــ نفس المرجع السابق. ص ٢٠٠
٢٠ ــ اولريش هارمان. **الاستشراق الألماني منجزات ومراجعة مواقف. الباحث**، العدد الأول، السنة الخامسة، شباط ١٩٨٣. ص ١٤٣ ــ ١٥١.
٢١ ــ نفس المرجع السابق. ص ١٤٥
22. J.V. Hammer - Purgstall, Literaturgeschichte der Araber, von ihrem Beginn bis zu Ende des zwolften Jahrhunderts der Hidschret, 7 Bde, Wien 1850 - 1856.
23. Arbuthnot, F., Arabic Authors, A manual of Arabian History and Literature, London 1890.
24. A.V. Kremer, Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen, Bd. II, Wien 1877.
25. C. Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature (Die Literaturen des Ostens in Einzeldarstellungen 1,2) Leipzig 1901.
26. Cl. Huart, Literature Arabe, Paris 1902. 4e Ed. eb. 1923; A History of Arabic Literature, London 1903.
27. I. Pizzi, Litteratura Araba, Milano 1903: (Manuali Hoepli, Serie Sc. 335/336).
28. M.J. de Goeje, Die arabische Literature in Kultur der Gegenwarthsg. Von P. Hinneberg, I. IV, Berlin. Leipzig 1906.
29. B. Nicholson, A Literary History of the Arab, London 1907, 4 ed. 1923.
30. A Krymski, Istoria Arabov i Arabski Literaturi, Moskau 1912.
31. A Mez, Die Renaissance des Islam, Heidelberg 1922,
32. H.R. Gibb, Arabic Literature, An Introduction. London 1926.
33. O. Rescher, Abriss der Arabischen Literaturgeschichte 1, II. Stuttgart 1925, 1933.
٣٤ ــ أحمد سمايلوفتش. نفس المرجع السابق ص ٧٤
٣٥ ــ نفس المرجع السابق. ص ١٦
٣٦ ــ محمد حمدي البكري. **أصول نقد النصوص ونشر الكتب محاضرات المستشرق الألماني برجستراسر** دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٩. ص ١١ ــ ١٢.
37. P. Collomp. La Critique des Textes. Paris, 1931
٣٨ ــ محمد حمدي البكري. نفس المرجع السابق.
٣٩ ــ صلاح الدين المنجد. **قواعد تحقيق المخطوطات**. الطبعة الرابعة. دار الكتاب الجديد، بيروت. ١٩٧٠. ص ٨.
40. R. Blachere et J. Souvaget. Regles Pour Editions et Traductions de Textes Arabes. Paris, 1945
٤١ ــ صلاح الدين المنجد. نفس المرجع السابق. ص ٨
٤٢ ــ عبد السلام هارون. **تحقيق النصوص ونشرها**. مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٥.